على هامش ذكرى المعرى

«داعى الدعاة» مناظر المعرى

للدكتور محمد كامل حسين

— ٤ —

لخصت فى مقالاتى السابقة شيئاً من حياة المؤيد داعى الدعاة، وتحدثت عن شىء من نشاطه فى الحياة السياسية، ولم أشأ أن أدخل فى تفصيلات لا تتحملها الصحف السيارة، والآن أتحدث عن أثر المؤيد فى الحياة العلمية والأدبية. فقد كان المؤيد عظيم الأثر فى معاصريه، واستطاع أن يسحرهم بفصاحته ويبهرهم بقوة حجته فانقاد له خلق كثير، واستطاع كذلك أن يجعل من تلاميذه مدرسة لها طابعه، تتحدث بآرائه وتبشر بتعاليمه، كما وضع عدة كتب لا تزال إلى الآن من أمهات الكتب التى لا يقر بها إلا شيوخ الدعوة الطيبية فى الهند واليمن، (أى طائفة البهرة)، وقد سرد عبد الله بن المجدوع فى رسائله أسماء الكتب التى وضعها المؤيد فى الدين، وهى تبلغ نحو ثلاثة عشر كتاباً، منها كتاب واحد بالفارسية هو كتاب أساس التأويل، وقال إن المؤيد ترجم هذا الكتاب عن العربية عن كتاب «أساس التأويل» لأبى حنيفة النعمان بن حيون المغربى. وقدر لى أن أطلع على هذا الكتاب بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن؛ فإذا هو يبحث فى تأويل قصص الأنبياء بعد أن قدم فى عدة صفحات قليلة بوجوب تأويل القرآن الكريم تأويلاً باطنياً، ووجوب معرفة الظاهر والباطن

ولعل أكبر أثر تركه المؤيد هو كتاب «المجالس المؤيدية»، وهو مجموعة محاضراته التى ألقاها فى مجالس الدعوة، وتجمع كل مذهب الفاطميين. فلم يترك المؤيد شيئاً من مذهبه دون الحديث عنه فى هذه المحاضرات التى بلغت الثمانمائة محاضرة، ولا أدرى تماماً متى جمعت هذه المحاضرات ومن الذى أطلق عليها هذا الاسم، ولكن الذى لا شك فيه أن الداعى اليمنى حاتم بن إبراهيم المتوفى سنة ٥٩٦ رتب هذه المحاضرات حسب

ثم ساءلتها أتحمل عنى بعض ما ذقت فى هواها فنونا
فثنت طرفها وقالت أما تبر ح يا ظالمى تسىء الظنونا
وأنا لا أشيم فى قلبك السا در نوراً ولا أحس يقينا
كلنا سيء الظنون وما أحسب إلا أن الأمانة فينا!

وكما يتردد ذكر الشك فى شعر رامى الجديد تتردد الشكوى من كثرة المحبين الذين تتهاوى فراشات قلوبهم فى نار حبيبه المقدسة:

يا من أخذت فؤادى أخذ العدو الحبيب
قلبى لديك فقل لى ما حاله فى القلوب

وما أعذب مطلع قصيدته «هوى الغانيات»

كيف مرت على هواك القلوب فتحيرت من يكون الحبيب؟

ومن قصيدته «بين الشك واليقين»:

وأطافت بك القلوب وقلبى ضاع فى غمرها ولما يضمك
خبرينى أى القلوب تناجين فقد ضمت فى غيابة شك

ثم تكثر فى شعر رامى الجديد تلك المقطوعات الرقيقة التى لا نستطيع أن نسميها إلا «خطابات شعرية» كان يرسل بها إلى حبيبه الجديد، يملأها بالشكوى وبالشك والحنين وهو يصرح فى معظم هذه (الخطابات المنظومة) بأن حبيبه هذا ذو صوت جنون حلو:

عشقتك للصوت الحنون وللشجى
وما كنت أدرى ما يجر هواك
غناء كشدو الطير فى رونق الضحى
ومعنى تناغى فى سماء منساك

وإذا سئل رامى عمن يكون هذا الحبيب أجاب:

أرادونى على أنى أبوح وهل يتكلم القلب الجريح

إلى أن يقول:

وتزدحم القلوب على هواها فتنكرنى ولى كبد قريح؟

وبعد... فمن الفضول فى تأريخ شعرائنا أن نعدو هذ الحد. مَنَّ الله على رامى بنعمة الهدوء فى عش حياته العائلى، زوجاً كريماً ووالداً برّاً رحيما.

دمنهور

محمد كامل حسين

ونشرها باسم « جامع الحقائق » ، فأدى بذلك خدمة جليلة لمن يبحث فى المجالس المؤيدية

قسم حاتم بن إبراهيم المجالس المؤيدية إلى ثمانية عشر باباً ، جمع فى الباب الأول ما ذكره المؤيد عن التوحيد ، وفى الباب الثانى ما اختص بالإبداع والمبدع الأول ، وفى الثالث ما ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى الرابع عن النبى (ص) وعلى بن أبى طالب ، وأفرد الباب الخامس لعلى بن أبى طالب ، وجمع فى الباب السادس ما قيل فى إثبات الإمامة فى ولد على ، وأن الإمامة تنتقل من والد إلى مولود لا تنقطع إلى يوم القيامة ، وفى الباب السابع حديث عن الأشباح الروحانية وفضلهم ، وفى الثامن ما قيل فى المادة والتأييد والوحى المتصل بالأنبياء ، وحديث عن الأنبياء والأوصياء ، وفى البابين التاسع والعاشر وجوب أخذ العهد على المستجيبين للدعوة ، ووجوب التأويل وصحته ، وفى الباب الحادى عشر تجدد رد المؤيد على غلاة الشيعة وعلى القائلين بالتناسخ ، وفى الباب الثانى عشر رد المؤيد على الفلاسفة والمعطلة والمنجمين ، وفى الباب الثالث عشر رسائل المؤيد إلى أبى العلاء المعرى ، ورد المؤيد على المعتزلة وعلماء أهل السنة واليهود ورده على ابن الراوندى صاحب كتاب الزمردة الذى يحتج فيه على الرسل ، ويحاول أن يبرهن على إبطال الرسالة ، وفى الباب الرابع عشر تحدث المؤيد عن أضداد الأنبياء والأوصياء منذ عهد آدم ، وفى الباب الخامس عشر جمع بعض مناجاة المؤيد وخطبه ومواعظه ، وجعل فى الباب السادس عشر فى ذكر فضل المهدى المنتظر ، أو بحسب اصطلاحهم « قائم القيامة » والباب السابع عشر عن المعاد والثواب وذكر أهل العذاب ، وختم كتابه بالباب الثامن عشر وهو خاص بأهل العذاب

هذه هى الموضوعات التى تحدث عنها المؤيد فى مجالسه ، وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن المؤيد كان واسع الاطلاع عالماً بمذهبه وبآراء جميع الفرق الإسلامية الأخرى ، وبما نقل إلى العربية من مذاهب الفلاسفة الأقدمين . والمؤيد فى كثير من مجالسه كان يأخذ آية من القرآن الكريم ، أو قولاً مأثوراً عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو عن أحد أئمة الفاطميين ويشرحه شرحاً يتفق مع ما كان يدعو إليه . فهى مجالس تأويل إن صح أن نسميها بهذا الاسم ، وهنا تتجلى لنا شخصية المؤيد ، إذ أن داعى الدعاة الأكبر أو الحجة هو صاحب التأويل فى عصره ، ولهذا نرى شيئاً من الاختلاف بين الدعاة فى تأويل بعض الآيات القرآنية الكريمة . فالتأويل شخصى يختلف باختلاف الدعاة وباختلاف العصور ، فتأويل النعمان بن حيون يختلف عن تأويل جعفر بن منصور اليمنى صاحب كتاب الكشف ، وكتاب سرائر النطقاء ، وكتاب أسرار النطقاء ، وهما يختلفان عن تأويل المؤيد فى مجالسه . وهم جميعاً يختلفون عن تأويل دعاة اليمن ، وهذا عجيب من قوم يدعون أن التأويل من عند الله سبحانه وتعالى !

كان المؤيد يبدأ مجالسه بمقدمة يحمد فيها الله ويثنى بالصلاة على النبى وعلى وصيه ، ثم يخاطب السامعين بقوله : « معشر المؤمنين » ... معلوم أن ... كما كان يختم كل مجلس بالدعاء لسامعيه ، ثم يعقبها بحمد الله والصلاة على النبى والوحى والأئمة . وكان إذا أراد التحدث عن نفسه فى مجالسه يقول : وقع فى أيدى أحد دعاتنا ... أو « سئل العالم » « قال العالم » ، لأنه كان يستر نفسه موهماً جمهور المستمعين أن هذه المجالس إنما هى صادرة عن الإمام نفسه

وها كم نص المجلس الثانى من المجالس المؤيدية فى موضوع الشرع والعقل بعد حذف المقدمة لطولها « معلوم أن المسلمين يشهدون بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام ضرورة من حيث أن القرآن الكريم مشحون بذكرهما وقصصهما . وهم « المسلمون » خصوم أمتيهما اللتين هما اليهود والنصارى ، وشهادة الخصم لا يحتاج معها إلى بينة ، وهم ينكرون النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا بينة للمسلمين غير القرآن الذى لا يقبلونه ويقولون ما هو بلغتنا ولا يلزمنا فيه حكم إعجاز ، والأخبار التى يأثرونها فى إعجاز النبى « ص » هم يردونها ولا يقبلونها . فكيف الحيلة فى إثبات نبوته عليهم ، من حيث لا يستطيعون ردها !

المناظر من المسلمين إذا ناظرهم قال إن كان موسى الذى دل عليه نبينا (ص) ونطق به القرآن الذى هو كتابه ؛ فقد لزمتكم نبوة صاحبنا كما لزمتنا نبوة صاحبكم ، وإلا لم نعرف صاحبكم كما

لا تعرفون صاحبنا . وعنده أنه دقق فى المناظرة وأحسن وجوّد، ولم يعلم أنه قابل كفراً بكفر ؛ فكان كما قال الله تعالى : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » وإنما الطريق عليهم أن يسألوا عن برهان سبقهم وأحدهم وأوضاع دينهم من حيث العقل فيوافقوا على كون اليهودية والنصرانية عندهم لفظاً بلا معنى وأن معانى ذلك محصورة فى دين الإسلام الذى أتى به محمد(ص) فيتعين على من طلب النجاة منهم ؛ فلم يعل ميل الهوى الإيمان به . وقول آخر : معلوم أن النبي «ص» مبعوث إلى الكافة كما قال الله تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا » وأن معجزة القرآن الذى هو كلام عربى يختص بلسان العرب، فإنه يستحيل أن يكلف الروى والهندى والتركى أن يقبلوا القرآن معجزاً ويؤمنوا به وبمن أتى به ، فما حجة نبوة محمد « ص » على هذه الأمم كلها إلا أن يقام عليهم من صورهم وتراكيبهم حجج عقلية هى موجودة فى معانى القرآن دون ظاهر لفظه عند الراسخين فى العلم يقوم منها برهان نبوة النبي « ص » وإلا فلا برهان . وقول آخر مختصر شاف : أن العقل صنع الله سبحانه فى باطن الإنسان يرى به مبصرات الآخرة ككون العين صنعه فى ظاهره يرى بها مبصرات الدنيا ، وقد يشرك الحيوان الإنسان فى العين ، ولا يشركه فى العقل ؛ فما يقال فيمن أعمى عينه ببيده فحجب عنها ضياء العالم ونوره؟ وهل يحكم على من فعل ذلك بعين يشركه الحيوان فيها إلا بضعف الرأى وسوء الاختيار؟ أفلا يحكم على من أعمى العين المطموح بها إلى دار القرار بالشقوة والخسار وحلول جهنم دار البوار نعوذ بالله من ذلك . وجملة ما يقال فى قضية قولهم إن الشرع غير موضوع على العقل إن ولى أفاقه من قصر أن يكون يحتاج البرهان فيها طائر فرأى أنه إن أثبت لكل شىء برهاناً ودليلاً ، واقع خطباً طويلاً ، وبدل تصحيح جسم رياسته تعليلاً فأبى أن يسلك فى هذا القول مضيقاً ، وآثر أن يقتصر على نفسه طريقاً ، ونفى أن بين الشرع والعقل صحبة أو قربة وسن بقوله هذا سنة أبقت على دين الإسلام سبة . و الخ »

هذا نص المجلس الثانى من المجالس المؤيدية بعد حذف الابتداء والانتهاء وهو يدل على مقدار حذق المؤيد وقوة حجته وتهكمه بخصوم مذهبه . ومن الطريف أنى قرأت فى الأسبوع الماضى مقالاً للأستاذ الجليل عزيز بك خانجى يتحدث فيه عما سمعه من المرحوم الشيخ محمد عبده فى تفسير سورة « والتين والزيتون » وأضيف الآن أن المؤيد داعى الدعاة أشار إلى هذه السورة فى ديوانه بقوله :

ففكروا فى التين والزيتون واستكشفوا عن سره المكنون
ولم أتى من ربنا به القسم كما أتى بالنون أيضاً والقلم

أما فى المجالس المؤيدية فقد أوّل هذا القسم بنفس التفسير الذى سمعه الأستاذ خانجى من الشيخ محمد عبده . فقال المؤيد : « وقعت الكناية عن آدم بالتين وعن نوح بالزيتون لأن كل ثمرة يتقدمها ورق ونوار ، والتين ينشق عنه أعواد الشجر وكل حى يسبقه حبل وولادة ، وآدم استخلصه الله من أديم الأرض من غير حبل وولادة فمن أجل ذلك مثله بالتين . وخلاصة الزيتون هى الزيت المأخوذ عنه كأنه الغرض من الزيتون وكمثل ذلك . فخلاصة نوح ابراهيم المستخلص من ذريته حتى كأن الغرض من نوح ابراهيم فهو مضمر فى نفس القسم من الله سبحانه . أما معنى « طورسينين » فالرمز لموسى عليه السلام ، وطورسينين هو موضوع مناجاته ومكان فضيلته ، وفيه إضمار وهو المسيح « وشجرة تخرج من طورسيناء تنبت الدهن وصبغ للآكلين » فالمسيح هو الشجرة الخارجة من طورسيناء النابت من منبعة ملة موسى فشرفه الله ورفعه . وهذا البلد الأمين كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم ، هناك قبلة الله الناسخة للقبل، بيتها أول بنيان بنى على وجه الأرض ، كما قال الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين » لآخر ساكن من أولى العزم من الرسل قال الله سبحانه وتعالى : « لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد »

فتوارد الخواطر بين المؤيد والإمام الشيخ محمد عبده فى تفسير هذه السورة أوضح من أن يحتاج إلى شرح فإنى أشك فى أن الإمام الشيخ محمد عبده قد اطلع على تفسير المؤيد ، فسايره فى تفسيره الذى ورد فى المجالس المؤيدية التى اعتبرها من الكنوز التى تركها علماء المذهب الفاطمي ، والتى لا غنى عنها لمن يدرس تاريخ وعقائد الدولة الفاطمية .

(يتبع)

دكتور
محمد كامل حسين
بكلية الآداب بالقاهرة